المقاومـــة الوطنيـــة الجزائريـــة بيـــن عوامل الانتصار وأسباب الانكسار

(من لم تفده أيامه العبر كان له العمى أولى بالبصر)

أ.سعيد شريفي

جامعة بوزريعة

إذا وعي الشعب المظلوم وضعيته انطلقت شرارة الثورة، وكانت المقاومة التي تزداد اشتعالا بتجاوز الظلم حدوده.

والمقاومة الوطنية الجزائرية لم تشذ عن هذا المسار، ظلما واضطهادا، فمقاومة ثمّ انعتاقا وتحررا.

الثورة قد تنطفئ جذوتها عند بداية اشتعالها، وهنا لا يكون الحديث عن المقاومة، بل الانتكاسة. أما المقاومة فمن طبيعتها الصمود والاستمرارية، بحيث كلما خبت نارها في مكان إلا والتهبت شرارتها في مكان آخر. وهكذا تتراوح بين مدّ وجزر، انتصار، وانكسار حتّى ينجلي فجر الانعتاق. وإذا كان الحديث عن النصر والكسر مهمًا، فإن الوقوف عند عوامل وأسباب كلّ منهما أهم.

فقيمة الحدث التاريخي لا تكمن في الحدث نفسه، بل في الأسباب والعوامل التي صنعته؛ بداية ونهاية، أسبابا ونتائج، انتصار وانحسار. المقاومة الوطنية انتصرت لأسباب وانكسرت لأخرى، عرفت النجاح حينا، ومنيت بالفشل حينا آخر، ومن الفشل والنجاح تستخلص الدروس والعبر، وتوضع خطط المستقبل.

ومن لم تفده أيامه العبر كان له العمى أولى بالبصر

استعراض أحداث المقاومة الوطنية وفصول خطواتها يزداد أهمية وعمقا حين نقف عند بذور هذه المقاومة ونحلل التربة الخصبة

التي ساهمت في فتق هذه البذور وتوفير مناخ نموها السليم إلى أن أينعت شجرتها وأتت أكلها.

الاستدمار الفرنسي ساهم دون شعور منه ولا قصد في زرع بذور المقاومة متجاهلا دروس تاريخ الشعب الجزائري الذي ما وضع وزر حرب حتّى خاض غمار حرب أخرى ضد المحتل الأجنبي، رومان كانوا أم واندالا وبيزنطين وأسبانا، إنّ جهل أو تجاهل الاستدمار الفرنسي لطبيعة الشعب الجزائري الذي يأبى الاستعباد والخنوع والإذلال، هو الذي جعله يتمادى في الظلم والاضطهاد حينا، ويراوغ ويخادع حينا آخر، وكثيرا ما كان يتذرع بحجج مغلوطة لتبرير احتلاله للشعوب العربية والإسلامية ومنها الجزائر. وقد فضح المصلح الاجتماعي والسياسي المرحوم جمال الدين الأفغاني هذه الأساليب المتمثلة في إغراء ضعاف النفوس واستمالتهم إليه ضد أوطانهم. وزرع بذور التفرقة والتشيع ليجد منفذا يتسلل منه إلى قلب الأمة، أو التبشير بمشروع اقتصادي يخرج الفقراء من الفقر، وينقذ الأقليات من مخالب الأكثيريات ويزعم أنه المهدي المنتظر[1].

وإذا لم يجد آذانا صاغية وعقولا مخدوعة يلجأ إلى التهديد والوعيد، وإلى أسلوب الكيل بمكيالين مكشرا عن أنياب الفتك والافتراس، دون أن يضع في حسبانه أنه يزرع بذور فنائه بسياسته.

1 - جمال الدين الأفغاني، الأعمال الموجزة، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، 1991، ص 164.

وهذا ما تكهّن به أحد منظريه وهو "ماكماهون" حين كتب في شهر جوان 1869 قائلا: « إنّ الجزائر خاضعة بالقوة، ولكن سكانها لم يستسلموا، وأي حادث تقترفه فرنسا ضدهم سيدفع بهم إلى الثورة »[1].

وانطلاقا من هذا التصور يمكن التأكيد على أن الاستدمار الفرنسي قد ساهم في حفر قبره بفؤوسه حين أعمل الحديد والنار والتخريب والدمار طمعا في الاستقرار، ولكن هيهات له البقاء في جزائر الأحرار، رغم ما خربه من المزارع والديار، وهاهو الكوماندان "ويستي" كتب سنة 1841 متحدثا عن إحدى حملاته في جنوب مقاطعة الجزائر قائلا: « إن عدد الدواوير التي أحرقت والمحاصيل الزراعية التي أتلفت لا يكاد يصدق، فلم يكن أحدنا يرى على الجانبين من الطابور سوى النيران »[2] وفي سنة 1843 كتب الضابط الفرنسي "ليون" واصفا جرائم الجيش الفرنسي بقوله: « لقد هدمت كثير من الدواوير، وأزيلت من الوجود قرى بكاملها بعد إشعال النيران فيها، وقطعت عدة آلاف من أشجار التين والزيتون وغيرها، وأنا لا أرى من مبرر لهذا النوع من التخريب خاصة إذا كنا نريد حقا أن نحتل البلاد ونفرض الضرائب على

1 – صالح فوكوس، المختصر في تاريخ الجزائر، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 190.

2 – مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 103.

أهلها »[1]. ما أصدق هذه الشهادة التي جاءت من أهلها، لتصف جرائم الاستدمار! شهادة يبدي فيها هذا الضابط عدم رضاه عما حدث وما سيحدث لاحقا، ولكن هذا ليس شفقة ولا رحمة بالأهالي العزل من كلّ شيء إلاّ من قوة الإيمان بالنصر المبين، بل هي تعبير عن مرارة نفسية وحسرة قوية على تخريب تلك الخيرات التي كان يتمنى استغلالها واستثمارها من طرف الكولون القادمين من فرنسا ولعابهم يسيل طمعا في جني ثمار هذه الخيرات، وقلوبهم تكاد تميّز من الغيظ على هذا الشعب الأبي الذي وقف بالمرصاد لجحافل الجيش الفرنسي الذي كان يزرع الرعب ويهلك الحرث والنسل دون أن يعي بأنه كان يزرع بذور الثورة التي كانت تسقى بدموع الثكالى وتروى بدماء الأبرياء الذين وهبوا أجسادهم وقودا للثورة التي أحرقت كلّ شيء، إلاّ شيئا واحدا ازداد اشتعالا ولهبا، هو قوة الإيمان باللّه عزّ وجلّ الذي وعد المجاهدين بالنصر المبين مهما كان طغيان الطغاة وجبروت المتجبرين، وكان زادهم الذي أبى أن ينفد هو قوله تعالى: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه واللّه مع الصابرين ﴾[2].

وهكذا هب الجزائريون تحت قيادة أبطال مغاور للذود عن حرمة العباد والبلاد، وظهرت بوادر الانعتاق والتحرر التي حملها

1 - مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 110.

2 - سورة البقرة، الآية 249.

أقطاب المقاومة الوطنية الجزائرية عبر كافة أنحاء الوطن رغم ما سجّل عليها من بعض النقائص والتراخي حينا، والانقطاع أو الانحسار أحيانا، نتيجة ارتماء بعض الشخصيات المحسوبة على المقاومة في أحضان الاستعمار والخيانة، وهذا ما ترك بعض الأثر السلبي على المسار الطويل للمقاومة. هذا المسار المليء بالانتصار والانحسار إلى أن استقام مشوار الثورة سنة 1954، هذه الثورة التي كانت نارا على فرنسا، وبردا وسلاما على الشعب الجزائري. وللحيلولة دون الوصول إلى هذه النتيجة الحتمية حاولت فرنسا ضرب الشعب الجزائري في مقوماته الحضارية وفي دينه الحنيف الذي كان وسيظل المدد الذي يمد الشعب الجزائري بكل أنواع الأمصال التي تقي جسمه من كلّ الجراثيم والسموم التي تنفثها الحناجر التي تقطعت أوتارها من شدة الصراخ والنعيق غيضا وحقدا على عروبة هذا الشعب وإسلامه.

فرنسا إذن اتجهت معاولها لردم وهدم الركائز التي أقام عليها الشعب الجزائري بنيانها وهذا ما نستنتجه مما كتبه أحد الضباط قائلا: « لقد كان من الواجب لإزالة الخطر على تواجدنا

في الجزائر أن نحطم المؤسسات الدينية وأن نحرم ظـهورها من جديد »[1].

وفي التوجه نفسه قال الكاردينال لافيجري: « علينا أن نهتم بتنشئة الأطفال على مبادئ غير المبادئ التي شبّ عليها أجدادهم، علينا أن ندخل في عقولهم تعاليم الإنجيل »[2] وهذا ما يفسر تكالب المبشرين على المناطق الفقيرة في الجزائر، واستغلالهم الفقر كظاهرة اجتماعية واقتصادية لتحقيق ظاهرة دينية وسياسية واقتصادية في الوقت نفسه. التبشير ظاهرة دينية يحقق إدماج شريحة من الشباب الجزائري في بوتقة الاستعمار الفرنسي الذي يجد في هذه الشريحة عونا له في الاستيطان، وتحريكه ضد بلده عند الضرورة. ومن نتائج الاستيطان السيطرة على خيرات الشعب الجزائري وبناء اقتصاد فرنسا على أكتاف هذا الشعب. وهكذا فإنّ الاستعمار الفرنسي مارس نوعين من التحطيم؛ تحطيم البنية التحتية المتمثلة في الاقتصاد والمنشأة العمرانية، وكذلك تحطيم البنية الفوقية المتمثلة في النسيج الروحي للأمة الجزائرية، غير أن الشعب الجزائري من جهته قاوم هذين النوعين من التحطيم رغم عدم تكافؤ الفرص، وتفاوت الإمكانيات. مقاومة الاستيطان

1 - بطاش علي، لمحة عن تاريخ منطقة القبائل حياة الشيخ حداد وثورة المقراني، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 45.

2 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

العسكري تولاها رجال ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا ﴾[1]، ومن الذين تولوا هذه المهمة العسيرة واليسيرة في الوقت نفسه، جماعة المقراني، والشيخ الحداد وبوعمامة، وفاطمة نسومر، ومن حذوا حذوهم في تلك الفترة أو بعدها. قلت المهمة عسيرة والمسار شاق وطويل لأن الخصم عنيد وشرس، شرس في تعامله مع الشعب الجزائري، ومتعجرف في نظرته إلى المقاومة التي حسم في نتائجها مسبقا، وكيف لا؟ وهو المدجج بأحدث الأسلحة والعتاد؟ ولكن المهمة يسيرة بالنظر إلى التركيبة البشرية والاجتماعية المواجهة والعنيدة الصامدة أمام هذا العدو المفترس. ومما زادها يسرا؛ هو الهدف الذي وضعته هذه التركيبة البشرية نصب أعينها، وما هذا الهدف إلاّ الأمة والوطن، ولكن لا بدّ لمن ثار من أجل الوطن من معنى روحي يرتكز عليه دفاعه وينير دربه المليء بالأشواك، إنّ هذا المعنى الروحي هو الذي يحجب عن الشعب الثائر كلّ معاني المادية والنتائج النفعية القريبة المنال، ويجعله يبيع نفسه بيعا لا ثمن له إلاّ الخلود في النعيم الأبدي مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[2] إن هذا الجزاء هو الذي جعل الشعب الجزائري الثائر يلتف حول أحادية الهدف ونبل المسعى،

1 - سورة الأحزاب، الآية 23.

2 - سورة التوبة، الآية 110.

ويتقبل الأذى بالرضا والطمأنينة. وهل هناك من منبع للرضا والطمأنينة أكثر من الدين وحرارته التي تجعل الثائرين يؤمنون إيمانا لا ريب فيه أن الثورة التي يقومون بها هي من أعماق الدين، ومما يجازى عليها الجزاء الأوفى[1] ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[2]. إن هذا الإيمان الراسخ هو الذي يجعل عسر الثورة يسرا، وأشواكها ورودا، وعلقمها شرابا طهورا. إنّ الإيمان بهذه المبادئ، والارتواء بها إلى حد الثمالة هي التي تجعل الشعب الثائر يهب نفسه أجسادا وأرواحا وما يملك من نفس ونفيس في سبيل نبل الهدف وعظمة المهمة. وبهذا تعانقت المقاومة المسلحة مع المقاومة الدينية لغرس قيم التضحية والجود بالنفس والمال. وهذا الصنف من المقاومة تجندت له المؤسسات الدينية والثقافية المنتشرة عبر الوطن، ومدّت المقاومة العسكرية بالطاقة الروحية التي استلهمت منها معاني التضحية والجهاد في سبيل الله لتطهير الجزائر من دنس الكفار. ومن تفاعل المقاومتين انبثقت أسس الفكر السياسي الجزائري الذي ظل يختمر وينمو بنمو الوعي الديني الذي شحنته حركة الإصلاح الشاملة التي ظهرت في العالم الإسلامي واستبعدت من مناهجها كلّ أشكال الدروشة والخنوع السلبي للقضاء والقدر، هذا المفهوم الخاطئ الذي وظفه الاستعمار

1 – عبد الله القصيمي، الثورة الوهابية، منشورات الجمل، بغداد، 2006، ص 7.

2 – سورة الشعراء، الآيتان 88، 89.

الفرنسي لكسب ولاء بعض الشخصيات المحسوبة على الدين والدين منها براء، لأنها لم تأخذ من الدين إلاّ القشور وراحت توالي وتتودد إلى العدو الفرنسي متجاهلة قوله تعالى: ﴿ لا تجد قوما يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾[1] وعلى هذا الصنف من الشيوخ راهن العدو وحاول ضرب المقاومة في عمودها الفقري معتمدا على أساسين: نفسي، وعسكري. فبالنسبة للأساس الأوّل، مارس سياسة النفي والإبعاد ومصادرة الأملاك، لأنه يعرف مدى تعلق المواطن الجزائري بالأهل والأرض والخلان. وقد استهدف أوّل ما استهدف شيوخ الزوايا ومقدمي الطريقة الرحمانية التي تعتبر من الطرق الصوفية الواقفة بالمرصاد للاستعمار، والتي جاهر شيوخها بعصيانهم وثورتهم للعدو الفرنسي، ومن هؤلاء نذكر مقدم الطريقة الرحمانية في عرش عمراوة بمنطقة القبائل "الشيخ محمد أمزيان شريفي" في قرية بوخالفة تيزي وزو. والذي مسه الأمر الصادر من رئيس الحكم المنفذ والمؤرخ في 15 جويلية 1871. ومما جاء فيه:

« بعد التفاتنا إلى ما أثبتته رسالة الجنرال الحاكم على قسمة الدلس وهو أن عرش عمراوة سبق للفتنة... واشتهروا بشدة مقاتلتهم

1 - سورة المجادلة، الآية 21.

إيانا... وبعد التفاتنا إلى ما طلبه الجنرال الحاكم وإنصاتنا إلى رأي الجماعة التي أقمناها في اليوم 7 من جوان 1871 أمرنا وأبرمنا بما سيأتي مفصلا:

الفصل الأوّل: قد أجرينا الثقاف ووضعنا يد الحيازة على أنواع أملاك عمراوة المذكورة مملوكة كانت أو مكتراة...

الفصل الثاني: إنّ هذا الثقاف المحكوم به سيجري على من يأتي اسمه.

سي محمد بن الشيخ محمد أمزيان مقدم الشيخ بن عبد الرحمان وجميع ورثة المرابطين الشرفة »[1].

والطريقة الرحمانية طريقة صوفية أسسها الولي الصالح، الشيخ محمد بن عبد الرحمن المعروف بـ (بوقبرين) والمكنى بالقشتولي الجرجري المولود حوالي سنة 1715 بقرية آيت إسماعيل المجاورة لجرجرة. وهو من أسرة علمية تلقى تعليمه بزاوية الشيخ أعراب في منطقة الأربعاء نايث إيراثن، وانتقل إلى الجامع الأزهر، حيث التقى بأكابر العلماء ومنهم الشيخ أبو عبد الله بن سالم الحفناوي[2]. وما يمكن استنتاجه هو: أن منطقة القبائل التي

1 - الأمر الصادر من رئيس الحكم المنفذ والمؤرخ في 15 جويلية 1871 (وثيقة متحصل عليها من أرشيف ولاية تيزي وزو).

2 - انظر: بسام العسلي، محمد المقراني وثورة 1871، الجزائر، دار النفائس، بيروت، 1886، ص 144.

يحاول بعض الجاحدين عزلها عن العالم العربي والإسلامي كانت ولا تزال وستظل الصخرة التي تتهشم عليها رؤوس دعاة الانفصال. وكذلك فإنّ العلاقة بين المشرق والمغرب العربيين علاقة تلاحم عضوي، لا، ولن تنال منها نكبات الزمن العارضة، لأن ما جمعته يد اللّه لا تفرقه أيادي الشياطين. وهذا ما تبيّن في الدور الكبير الذي لعبته الزوايا وشيوخها في الكفاح المسلح، ومن الأوائل الذين ساهموا في هذا المسار:

الشيخ محمد الجعدي: الذي عيّنه الشيخ الحداد وكيلا ومقدما على الزاوية المذكورة، وفيها اكتسب سمعة طيبة، ومنها امتد نفوذه إلى مناطق أخرى من الوطن.

نظرا لمكانة الزاوية وأهميتها في ترسيخ فكرة الجهاد الذي يعتبر من أقدس العبادات في الإسلام، ثمّ إنها كانت عاملا مهما في توحيد الكلمة ورصّ الصفوف في عملية التعبئة وانتصار المقاومة في مراحلها الأولى لولا بعض الانتكاسات التي لحقت بها في الأخير. وقد حذر أحد الكتاب من خطورة الزوايا على الوجود الفرنسي وكتب قائلا: « إن أكبر العوائق التي تعيق تثبيت السلطة الفرنسية في بلاد جرجرة هو الزوايا المنتشرة، وكذلك المرابطون الذين يزول دورهم بمجرّد قيام حكم مركزي يتولى فصل المنازعات بين قرى القبائل، ولهذا فهؤلاء يعملون المستحيل من أجل عرقلة استتباب

الأمن »[1] ولم يكتف شيوخ الزوايا بالقول فقط، بل انتقلوا إلى العمل. ففي يوم 11 أفريل سنة 1860 وصل إلى زاوية الشيخ محمد الجعدي مبعوثان من طرف الشيخ الحداد وهما: محمد المشتراسي الذي كان باش عدل سابقا، لقاضي ذراع الميزان، وكذلك آكلي نايت بوزيد من آيت منداس وهما القريتان المجاورتان لزاوية الشيخ بن عبد الرحمن، حاملين نداء الجهاد من طرف الشيخ الحداد، فاستدعى محمد الجعدي زعماء الإخوان الرحمانيين لتدارس الوضع واتفقوا على مهاجمة الأوروبيين في ذراع الميزان وطردهم منها[2] وأمام هذا الحدث نقف عند نقطتين أساسيتين هما: التشاور، الجهاد. التشاور هو أساس الحكم الراشد في الإسلام بمعرفة الرأي الصائب من الخاطئ، وهو مبدأ من مبادئ الفكر الديمقراطي الحديث. وكذلك إن الشورى منصوص عليها في القرآن الكريم بنص قوله تعالى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾[3].

ومبدأ الشورى لا يعمل به إلاّ السياسي المحنك، خصوصا في الأمور الاستراتيجية العظيمة الخطورة مثل الجهاد الذي يتوقف عليه مصير الأمة ومستقبل الأجيال، وتزداد هذه الخطورة عندما يكون

1 – Smail Urbain, "Les Kablyles du djurdjura", Revue de Paris, Mars 1857, p 104.

2 – يحي بو عزيز، مجلة الثقافة، عدد 35، نوفمبر 1976، ص 12.

3 – سورة الشورى، الآية 38.

السجال بين قوتين غير متكافئتين في القوة والعتاد. ولهذا فبقدر ما رفع الله جزاء المجاهدين في سبيل الله حرص على ضرورة إعداد العدة لهذه المهمة النبيلة والخطيرة في الوقت نفسه، وفي هذا المعنى يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1]. ونوع العدّة الحربية يختلف باختلاف الزمان والمكان ولكن تبقى نجاعة الخطة والحنكة السياسة تلعب دورا كبيرا في العملية العسكرية، فالشيخ محمد الجعدي أمر رفاقه بإشعال النيران على المرتفعات الجبلية المحيطة، إيذانا ببداية الحرب، وإشارة إلى الإخوان الرحمانيين بضرورة الالتحاق والتجمع في رحاب الزاوية، وهو ما حدث فعلا حيث انطلقت الجموع نحو ذراع الميزان محملين بالأسلحة البسيطة والفؤوس والعصي طالبين من الأوربيين الساكنين في ذراع الميزان مغادرة البلد[2].

وأثناء مدة الحصار نشط الشيخ الجعدي في كتابة الرسائل التي استحث فيها السكان على الإسراع لتشديد الحصار على الكفار.

1 - سورة الأنفال، الآية 60.

2 - يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 12.

وفي رسالة كتبها إلى القائد حمّو بن عربية قال فيها: « نخبر بفتح باب الجهاد في سبيل الله واجتهدنا مع أعراشنا للجهاد والحمد لله على هذه الساعة وها أنا حاصرين الكفار في ذراع الميزان »[1] وفي رسالة أخرى أكد محاصرة كلّ الأعراش لكفار ذراع الميزان، وحمد الله على فتح باب الجهاد ليغسل المسلمون ذنوبهم، وطلب في النهاية الانضمام إلى قافلة المجاهدين[2] وهكذا نلاحظ أن الشيخ محمد الجعدي كغيره من مقدمي الزوايا والطرق الصوفية يستغل العاطفة الدينية لربط العمل السياسي بالعمل العسكري، فعبارة الجهاد لا تكاد تفارق الخطاب السياسي لهؤلاء الشيوخ، من أجل زرع الحماس في النفوس واستنهاض الهمم وتجنيد مختلف الفئات الشعبية، لأن الجهاد من الأمور التي أمر الله بها جميع المسلمين بنص قوله تعالى: ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾[3].

وهذه الآية أمر من الله للمسلمين نصرة دينه، باستفراغ الطاقة فيه اعترافا من المسلمين باختيارهم لهذا الدين الذي يسره الله عليهم، وأباح لهم بعض المحظورات في الجهاد، مثل أكل الميتة

1 - يحي بو عزيز، مرجع سابق، ص 12.

2 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3 - سورة الحج، الآية 78.

والإفطار في رمضان والقصور في الصلاة والتيمم فيها، لرفع الحرج عن المسلمين[1] وفي رسالة أخرى وجهها إلى كافة المشايخ وعرش عريب بسور الغزلان دعا فيها الشيخ الجعدي إلى الجهاد والثورة بعد أن عاتبهم على عدم إجابتهم على رسائله السابقة الداعية إلى الانضمام إلى الثورة. ومما جاء في هذه الرسالة قوله: « نخبركم أن الأولياء كافة اتفق رأيهم وفتّحوا على النصارى لا يعودون إلى بلادنا، قد فك الله يسر المسلمين، والكفار لا يعودون إلى ما كانوا فيه، وفي شهر ربيع الأوّل يكون خروجهم إن شاء الله، اعزموا بالعجل لدخولكم في دين الله قبل الفوات »[2].

إنّ هذا الجهد السياسي والجهادي الذي قام به هذا القائد المغوار جعل كلا من المقراني وأخاه بومزراق يعتمدان عليه في الدعوة إلى الجهاد، نظرا للتأثير النفسي والفكري الذي كان له على السكان وهذا التأثير لم يكن ليترك أثره لولا الروح الدينية التي كونتها الزوايا في النفوس. وكأني بالاستعمار الفرنسي أدرك مواطن القوة عند السكان ومارس حربين حربا عسكرية، وحربا نفسية تمثّلت في سياسة النفي والإبعاد لرؤوس المقاومة. ومنهم أحمد بو مزراق، شقيق البشاغا المقراني، والشيخ عزيز وأخوه محمد

1 - انظر: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، المجلد الثالث، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ص 111.

2 - يحي بو عزيز، مرجع سابق، ص 13.

وغيرهم كثيرون. وكل هؤلاء تعرضوا لقساوة البعد عن الأهل والديار، وعانوا مرارة الإهانة والمجاعة ومرارة البعد عن الوطن والأهل، مما جعل هؤلاء يراسلون حكّام فرنسا يصفون أحوالهم البائسة وأوضاعهم المتردية، ولقد اختار المؤرخ الجزائري يحي بوعزيز بعض رسائل هؤلاء المنفين ليعطينا صورة شبه حية عن حياتهم في سجون المنفى. وأكتفي برسالة واحدة من الرسائل التي بعث بها هؤلاء إلى الماريشال "ماكماهون" حاولوا مغازلته واستعطافه بالتعبير له عن سرورهم بتوليه الحكم في فرنسا طالبين منه إطلاق سراحهم بعد أن قضوا مدة عامين في السجن بفرنسا. واعتذروا عن مشاركتهم في الثورة قائلين: « نحن ضعفاء ولا نقدر على أمر نسلك به أنفسنا من أولاد مقران، كما لا يخفاك، ولا نكون شيوخا ولا قيادا »[1] إنّ هذه الرسالة جزء من كلّ. وهي تعبير عن استعمال فرنسا لكلّ الأساليب التي رأت فيها بصيصا من الأمل لإطفاء نور الجهاد الذي كان يتغذى من فكر المتنورين من رجال الدين الذين لم يدخروا جهدا لإقناع المسلمين بضرورة رفض العيش تحت حكم الكافر الصليبي، وهذا ما جعل الشعب الجزائري يزيد نار المقاومة اشتعالا هنا وهناك، كلّما تمكّن من ذلك رغم محاولة بعض ذوي الامتيازات عرقلة وإجهاض روح الثورة

1 - يحي بوعزيز، مجلة الثقافة، عدد 42، ديسمبر يناير 1978، ص 10 - 11.

العارمة[1]، ومن هذه المحاولات التركيز على فصل الشعب الجزائري عن مقوماته الثقافية التي تعتبر الدرع الواقي من الأسلحة الفتاكة المتمثلة في سياسة الاندماج التي تجعل الشعب الجزائري يذوب في مجتمع غير مجتمعه، ويتقبل سياسة غريبة عن هويته وطبيعته[2] فرغم المعاهدة التي تمّ توقيعها بين الداي حسين والجنرال "دبورمون" التي نصّت على احترام الدين والمقومات الثقافية والأملاك الجزائرية، فإنّ الفرنسيين خرقوا هذه المعاهدة، وصادروا أملاك الزوايا والأوقاف لتجميد نشاطها، نظرا لاعتبارهم أن أموال الزوايا هي مصدر قوة نشاطها[3].

ونشاط الزوايا هو مصدر الطاقة المعنوية والروحية للثورة، وهذا ما نبّه إليه أحد الخبراء الفرنسيين في التقرير الذي كتبه إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر وقال فيه: « إننا لا يمكن أن نحصل على هدوء تام في هذه البلاد التي يوجد فيها شعب متعصب قابل للتحريض، مما يجعلنا نتوقع أحداثا في كلّ لحظة، ولهذا يجب أن نكون على استعداد تام لقمعه، وأن المعمل الحقيقي

1 - محمد قناش، الحركة الاستقلالية في الجزائر، ش.و.ن.ت، 1982، ص 22.

2 - العربي الزبيري، مجلة الرؤيا، اتحاد الكتاب الجزائريين، شارع ديدوش مراد، العدد الأوّل، 1982، ص 6.

3 - خديجة بقطاش، مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، عدد 62، مارس -أفريل، 1981، ص 76.

للتعصب والازعاج والقلاقل هو الزوايا »[1] التي كانت النبراس المضيء والأرض الخصبة لازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي عموما، وفي منطقة القبائل بصفة خاصة[2]، هذه المنطقة التي كانت همزة وصل بين الأندلس والمشرق العربي الإسلامي، حيث كان الأندلسيون وهم في طريقهم إلى المشرق العربي يمرون على مدينة بجاية للمزيد من العلوم[3] وما مقر هذه العلوم ومصدرها إلا الزوايا القرآنية التي تكوّن فيها المجاهدون، الذين صمد بعضهم حينا، وخارت عزيمة بعضهم حينا آخر، وهذا ما ظهر في تنافس أحمد المقراني، ومحمد بن عبد السلام المقراني على تولي سلطة تسيير إقليم مجانة والحضنة بجبال البيبان[4] ويعتبر هذا التنافس على السلطة بين القادة هو المنفذ الذي دخل منه الاستعمار الفرنسي إلى صفوف الثورة، لأن الصراع على السلطة منه تنطلق قلة التنظيم، وسوء الاتصال بين المجاهدين ويجعل الثورة

1 - تقرير: رقم A.O.M.AH6 إكس، بروبانس فرنسا.

2 - باعزيز بن عمر، الزوايا في الزواوة، انظر: الشهاب، ج 2، م 9، جانفي 1933، ص 17.

3 - أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1972، (1962 -1972)، ص 3 وما بعدها.

4 - الأمير محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية، 1903، ج 1، ص 195.

بدون قيادة[1] وهو العامل الذي كانت فرنسا تراهن عليه طيلة وجودها في الجزائر، حيث كانت تحاول استمالة دوار ضد آخر أو عائلة ضد أخرى بإثارة الحزازات العرقية أو الفوارق الاجتماعية، مما عرقل عدم الوصول إلى الهدف المنشود، نظرا لعدم تكافؤ الفرص[2]. ولكن رغم هذه الانتكاسات التي كانت تصيب المقاومة الوطنية فإنّ الشعب الجزائري ظل بالمرصاد، فكلما أجهضت مقاومة في منطقة ما إلا واندلعت أخرى في منطقة ثانية فبمجرد إخماد نار الحرب في الشمال القسنطيني التي قادها البطل المغوار الحسين بن أحمد بمعية الشيخ عزيز، اندلعت أخرى في الأوراس سنة 1879 بقيادة محمد أمزيان عبد الرحمن. ولكن مع الأسف انتهت بالفشل، وانسحاب الثوار إلى تونس عن طريق الصحراء، حيث ألقت السلطات التونسية القبض عليهم وسلّمتهم إلى السلطات الفرنسية التي حكمت بالإعدام على بعضهم، وبالأشغال الشاقة على البعض الآخر، مع مصادرة أملاكهم[3]، وبهذا يظهر دور الخيانة وتخاذل الأشقاء في المواقف الحاسمة.

1 - مولود قايد، ثورة 1871 ونتائجها، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، عدد خاص، 22 أكتوبر 1974، ص 51.

2 - عمار بوحوش، التاريخ السياسي الجزائري من البداية إلى 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 148.

3 - Charle Robert Ageron, Les Algériens musulmans et la France, Tome 1, 1871-1919, Paris, PUF, 1968, p 59.

والتخاذل كان دوما المعول الذي به تتحطم بعض النفوس، وتنكسر الثورات، ولكن الثورة لم يكن معقلها الشمال القسنطيني وحده أو الأوراس وحدها، ولم تكن البطولة وقفا على الرجال دون النساء الجزائريات. ومن هؤلاء النساء اللواتي ضربن أروع الأمثلة في الصمود والتحدي، لا يقل عن الدور الذي لعبه الرجال.

فاطمة نسومر:

هي من مواليد 1830 تقريبا في إحدى بلديات عين الحمام بمنطقة القبائل، والدها هو سيدي أحمد أمزيان أحد شيوخ الطريقة الرحمانية، ومقدم الزاوية[1] وهذه شهادة أخرى على دور الزوايا القرآنية في إعداد رجال الثورة ضد الاستعمار الفرنسي إعدادا فكريا وسياسيا. ومن هذه الوقفة نعرف المنبع الفكري الذي ارتوت منه لالة فاطمة نسومر التي عرفت بحسن خلقها وجمال خلقتها وقوة شخصيتها التي اكتسبتها من الوسط العائلي والاجتماعي الذي ترعرت فيه، وقد رفضت الزواج، غير أن أخاها أجبرها على ذلك، مما أوقعها في نوبات هستيرية كانت سببا في إرجاعها إلى بيت أهلها دون تطليقها نكاية بها وانتقاما منها[2].

1 - انظر: حسن حموتان، مقال في مجلة الأصالة، عدد 16، 1978، وزارة التعليم الأصلي، الجزائر، ص 161.

2 - حسن حموتان، مرجع سابق، ص 162.

ولكن كيف ظهرت إلى الميدان وهي التي تربت في عائلة محافظة ووسط اجتماعي تقليدي يحول دون دخول المرأة في معترك الحياة السياسية إلى جانب الرجال؟ يقال أن الأزمة تولد الهمة، والهمة هي نوع من الشخصية المتكاملة القادرة على التكيف والتميّز بوحدة اتجاهها، بحيث تكون جميع استجاباتها الجزئية متفقة مع الأهداف المادية والاجتماعية والعاطفية والأخلاقية المؤثرة فيها متعاونة ومتفاعلة على تحقيق التكيف العام[1]. فهناك إذن موقف عام طرأ على المحيط العائلي والاجتماعي الذي ولدت فيه فاطمة نسومر، إلى جانب التربية العائلية التي غرست فيها روح الجهاد في سبيل الله، خصوصا عندما يتعلق الأمر بمحاربة استعمار فرنسي غاشم وصلت أخبار الجرائم التي ارتكبها في المناطق الأخرى قبل وصوله إلى منطقة القبائل، فأية محافظة بقيت في مثل هذه الظروف؟ فهناك محافظة على التقاليد الضيقة، ومحافظة على الوطن! هل نحافظ على النسيج العائلي؟ أم نحافظ على النسيج الوطني الذي يضمن حتما النسيج العائلي؟ إن هذا المنطق فرض على فاطمة نسومر أن تكيف شخصيتها مع الواقع العام لتكسير طابوهات التقاليد الضيقة، وتتحرر من مخالب الجمود والاستسلام للأمر الواقع، وتحذو حذو الصحابيات الجليلات اللواتي آزرن

1 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1971، ج 1، ص 693.

أزواجهن زمان البعثة النبوية، وخلّدن أسماءهّن في تاريخ السيرة النبوية. وهو ما فعلته فاطمة نسومر في منطقة القبائل وجبال جرجرة الشماء أين خاضت أشرس المعارك ضد القوات الفرنسية التي حاولت التغلغل في أعماق المنطقة[1]، وهذا التغلغل بدأ سنة 1845 حين اقتحم الجيش الفرنسي قرية تادمايت بقيادة السفاح "بيجو" الذي وجد أمامه الحاج محمد بن زعموم الذي وقع أسيرا، ومنها زحف إلى تيزي وزو وحاول اقتحام الأربعاء نايث إيراثن، ولكنه انهزم أمام المقاومة الشرسة التي قوبل بها من طرف المقاومين، في حين قاد الجنرال (روندون) حملة عسكرية تجاه قرى (فليسة) سنة 1850، ومن ناحية "دلس" زحف (بيجو) نحو الأربعاء نايث إيراثن ولكنه انهزم، وفي خضم هذه المعارك ظهر بوبغلة الذي اتصل بالمواطنين وطلب منهم التعاون على حرب الفرنسيين، ولكن أحد الخونة المتعاونين مع فرنسا سارع إلى إبلاغ السلطة الفرنسية، ولما سمعت به فاطمة نسومر سارعت إلى مؤازرته والوقوف بجانبه[2]. وحسب بعض الروايات فإنّها هي التي قتلت الخائن (لافاسي الجودي)، وعندما سقط بوبغلة جريحا أسعفته وأنجته من الوقوع في الأسر. وواصلت معاركها ضد العدو الفرنسي الذي ما حل بقرية

1 - يحي بوعزيز، مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، عدد 55، يناير فبراير 1980، ص 15.

2 - محمد صغير فرج، تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتّى سنة 1954، تعريب موسى زمولي، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص 94.

من قرى القبائل، إلا وترك فيها الخراب والدمار، ولما رأت الخطر المحدق بالنساء والأطفال أمرت باللجوء إلى قرية "ثخلجت ناث عيسى" ومال المقاتلون إلى الاستسلام. ودارت المفاوضات بينهم وبين "روندون" وتم الاتفاق على عدم المساس بالعرض والأملاك، ولكن القبطان "فوشو" اقتحم القرية وأسر لالة فاطمة نسومر ومن معها من الأطفال والنساء، وسيقت إلى إحدى زوايا تابلاط، وبقيت تحت الإقامة الجبرية مع إخوانها سي الطاهر، سي أحمد، سي شريف، سي الهادي وآخرون من أقاربها، وبقيت في هذه الزاوية مدة سبع سنوات إلى أن وافاها الأجل في شهر سبتمبر سنة 1862 ودفنت إلى جانب أخيها الذي توفي قبلها سنة 1861. وبهذا أسدل الستار على حياة فاطمة نسومر. ولكن وفاة فاطمة نسومر لا تعني موت المقاومة. ماتت جسدا، وبقيت حية معاني وأفكارا وقدوة لذوي الألباب. موتها كان نهاية وبداية، نهاية لمعركة، وبداية لمرحلة أخرى من المقاومة، الحرب سجال، يوم لك ويوم عليك، نجاح وفشل. العبرة في استخلاص أسباب النجاح أو الفشل، عوامل الانتصار وأسباب الانكسار. الاستعمار الفرنسي استخلص العبرة، ووقف على مواطن قوة الشعب الجزائري المتمثلة في وحدة العقيدة وقوة الإيمان، والشعور بوحدة المصير المشترك. والدور الذي لعبته المؤسسات الدينية في التعبئة الشاملة للشعب الجزائري، وراح يكيل بمكيالين، ويخطط لضرب معاقل القوة بنشر النعرات الشعوبية،

والحزازات الجهوية والتمذهب الذي لا معنى له في الإسلام؛ من أجل استمالة ضعاف النفوس للسير في فلكه. فهل آن الأوان لجيلنا الصاعد أن يتفطن لهذه المكائد ويدرك أسباب النصر والكسر، وأن لا ينخدع بالألوان البراقة التي تبهر بصره وتعمي بصيرته. ويتذكر دائما أن العدو اللدود للشعب الجزائري هو الاستعمار الفرنسي الذي لن يرضى علينا ما لم نسبح بحمده. ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتّى تتبع ملتهم قل إن هدى اللّه هو الهدى ﴾ صدق اللّه العظيم (سورة البقرة، الآية 120).

الآيات القرآنية الكريمة:

1 – سورة البقرة: الآية 249.

2 – سورة الأحزاب: الآية 23.

3 – سورة التوبة: الآية 110.

4 – سورة الشعراء: الآيتان 88، 89.

5 – سورة المجادلة: الآية 21.

6 – سورة الشورى: الآية 38.

7 – سورة الأنفال: الآية 60.

8 – سورة الحج: الآية 78.

المراجع:

أولا – باللغة العربية:

1 -أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة: حنفي بن عيسى، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1972.

2 -الأمير محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية، 1903.

3 -بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871، الجزائر، دار النفائس، بيروت، 1886.

4 -بطاش علي: لمحة عن تاريخ منطقة القبائل، حياة الشيخ الحداد وثورة المقراني، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

5 -بعزيز بن عمر: الزوايا في الزواوة، انظر الشهاب، ج 2، م 9، جانفي 1933.

6 -جمال الدين الأفغاني: الأعمال الموجزة، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، مصر، 1991.

7 -جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1971.

8 -حاشية الصاوي على تفسير الجلالين المجلد الثالث، دار الفكر، بيروت (د.ت).

9 -حسن حموتان: مجلة الأصالة، عدد 16، وزارة التعليم الأصلي، الجزائر، 1978.

10 -خديجة بقطاش: مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، عدد 62، مارس أفريل 1981.

11 -صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

12 -عبد الله القصيمي: الثورة الوهابية، منشورات الجمل، بغداد، 2006.

13 -العربي الزبيري: مجلة الرؤيا، اتحاد الكتاب الجزائريين، شارع ديدوش مراد، العدد الأوّل، 1982.

14 -عمار بوحوش: التاريخ السياسي الجزائري من البداية إلى 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

15 -محمد صغير فرج: تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتّى سنة 1954، ترجمة: موسى زمولي، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.

16 -محمد قناش: الحركة الاستقلالية في الجزائر، ش. و. ن. ت، 1982.

17 -مصطفى الأشرف: الجزائر أمة ومجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1981.

18 -مولود قايد: ثورة 1871 ونتائجها، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، عدد خاص، 22 أكتوبر 1974.

19 -يحيى بوعزيز: مجلة الثقافة، عدد 35، نوفمبر 1976.

20 - مجلة الثقافة، عدد 42، ديسمبر يناير 1978.

21 - مجلة الثقافة، عدد 55، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، يناير فبراير 1980.

22 -وثيقة من أرشيف الولاية (تيزي وزو).

23 -تقرير رقم A.O.M.AH6 أكس بروفونس فرنسا.

ثانيا – باللغة الفرنسية:

1-Smail Ubain : "Les Kabyles du Djurdjura", Revue de Paris, Mars 1857.

2-Charles Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France, tome 1, 1871 – 1919, Paris, P.U.F, 1968.